

توقفت كثيرا عند اختيار الزاوية التي أتناول منها رعوف عباس في هذا المقال، فكرت في البداية أن يكون مدخلي للحديث عن مؤرخنا الراحل الكبير رعوف عباس تأسيسه لمدرسة جديدة في الدراسات العثمانية، لكنني تداركت.. فدوره الرائد في مجال دراسات تاريخ مصر الاجتماعي أقدم بكثير من اهتمامه بالتاريخ العثماني، وانتهت كذلك إلي أن إسهام رعوف عباس يتجاوز بكثير دوره الأكاديمي ليمتد إلي العمل العام في الدفاع عن استقلال الجامعة من خلال عضويته في حركة 9 مارس، كما يمتد لمؤسسات عدة خارج الجامعة، ما بين الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ودار الوثائق القومية وغيرها من المؤسسات.

عرفت رعوف عباس حامد للمرة الأولى كما عرفه الكثيرون من أبناء جيلي، من خلال كتابه المهم عن الحركة العمالية في مصر، الذي صدر سنة 1968، وقد تعرفت علي الكتاب بعد صدوره بعدة سنوات عندما التحقت بكلية الآداب سنة 1972، وكان وقتها دراسة أكاديمية رائدة تفتح مجالا جديدا في دراسات التاريخ الاجتماعي، وتؤسس لمدرسة مصرية لدراسة تاريخ الطبقات الاجتماعية والتجليات السياسية لنشاط تلك الطبقات وحركتها في المجتمع، من خلال دراسة تاريخ الطبقة العاملة المصرية.

ثم أتبع كتابه الأول بكتاب ثان عن النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الكبيرة، صدر سنة 1973، فجمع بذلك بين دراسة قمة المجتمع المصري وقاعه في مرحلة ما قبل انقلاب يوليو 1952، ودشنه كتابه الثاني رائدا لمدرسة التاريخ الاجتماعي لمصر في العصر الحديث بلا منازع.

كان الكتابان في الأصل رسالتي الماجستير والدكتوراه، وقد حصل علي الرسالتين من جامعة عين شمس تحت إشراف أستاذه الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى الذي ينتمي إلي الجيل الثاني في مدرسة التاريخ الحديث بجامعة عين شمس، الجيل الذي درس في النصف الثاني من الأربعينيات... تتلمذ علي أحمد عزت عبد الكريم، الذي جعل من شعبة التاريخ الحديث في جامعة عين شمس مدرسة متميزة في الجامعات المصرية كلها، وكان رعوف عباس نتاجا لهذه المدرسة.

وقبل أن ينتهي عقد السبعينيات من القرن الماضي كان رعوف عباس قد أضاف كتابين جديدين إلي المكتبة التاريخية المصرية، مذكرات محمد فريد الذي صدر عام 1975، والحركة العمالية المصرية في ضوء الوثائق البريطانية 1924 - 1937، ليطلق من جديد في كتابه الأخير هذا موضوعه الذي ظهر به علي ساحة الكتابة التاريخية، موضوع تاريخ الحركة العمالية في مصر، ثم أضاف إليها عملا مترجما تأسيسيا في مجال دراسات التاريخ الاقتصادي الاجتماعي عندما ترجم كتاب موريس دوب «دراسات في تطور الرأسمالية» إلي اللغة العربية سنة 1978.

وخلال عقد السبعينيات أيضا بدأ رعوف عباس في نشر عدد من الدراسات المهمة في الدوريات العلمية المتخصصة، واستمرت دراساته وأبحاثه تنشر في الدوريات المصرية والعربية والأجنبية يفتح في كل منها مجالا جديدا، وكان من المجالات المهمة التي تطرق إليها في دراساته تجربة النهضة اليابانية، والتي بدأ الاهتمام بدراستها بعد رحلته لليابان التي قام خلالها بالتدريس في الجامعات اليابانية، وكانت دراساته حول التجربة اليابانية موضوعا من موضوعات دراسة التاريخ المقارن التي انشغل بها رعوف عباس، واستمرت علاقته بتاريخ اليابان من خلال عدد من الدراسات والترجمات، كما تواصل اهتمامه بالتاريخ المقارن ونظم بالتعاون مع صديقه المؤرخ الأمريكي بيتر جران حلقة بحثية لشباب الباحثين في التاريخ حول التاريخ المقارن لمصر والشرق الأوسط، كانت مجالا مفتوحا لتبادل الخبرة والرؤي بين عدد من الباحثين المهتمين بدراسة التاريخ المقارن.

ورغم أن رءوف عباس حصل علي الماجستير والدكتوراه من جامعة عين شمس إلا أنه انتقل للعمل في جامعة القاهرة فنقل إليها تقاليد جديدة وأسس فيها مدرسة تاريخية تنتمي إليه بحق. وأهم ملامح تلك المدرسة اهتمامها بدراسة تاريخ مصر في العصر العثماني في ضوء المصادر الجديدة التي أصبحت متاحة للباحثين، وفي هذا الصدد يصف رءوف عباس في مقدمته للترجمة العربية لكتاب نيللي حنا «ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية» موقف جيله من المؤرخين تجاه العصر العثماني بقوله: «ضيعنا ثلاثة قرون كاملة من تاريخنا، جريا وراء أفكار نظرية صدرها لنا من وصفوا تلك القرون بأنها عصر جمود وركود وتخلف، وكنا - في الستينيات والسبعينيات - نطبق تلك النظريات علي تاريخنا، أو - بعبارة أدق - نصب تاريخنا في قوالبها صبا ما دمنا قد سلمنا بما غلب علي تلك القرون الثلاثة من جمود وركود وتخلف ثقافي»، ويعود فيفسر انتشار هذه الأفكار بسرعة وسهولة بالدور المهم لمصر في عصر المماليك السابق علي العصر العثماني، وفي العصر اللاحق عليه، أي عصر محمد علي، فيقول: «هذا الوضع السياسي المتواضع، قياسا بالعصرين السابق واللاحق - من حيث الدور الإقليمي - حوّل العصر العثماني إلي مجرد «جملة اعتراضية» في تاريخ مصر العريق، وركزت الدراسات الأكاديمية اهتمامها علي ما سبقه ولحق به، ولم يحظ إلا باهتمام محدود»، وبغض النظر عن تلك القضية الشائكة فإن رءوف عباس نجح في توجيه عدد من طلابه إلي هذا الحقل كان أولهم وأبرزهم محمد عفيفي الذي أنجز دراستين من أهم الدراسات حول تاريخ مصر العثمانية تحت إشراف رءوف عباس، الأولى عن الأوقاف والثانية عن الأقباط في مصر العثمانية، وكان أحدث هؤلاء التلاميذ وأقربهم إلي أستاذه ناصر إبراهيم الذي درس تحت إشراف رءوف عباس «المجاعات والأوبئة في مصر العثمانية» كما درس «الإدارة في زمن الحملة الفرنسية»، وقد حول رءوف عباس المدرسة إلي مؤسسة من خلال إشرافه علي سمينار التاريخ العثماني الذي بدأ في قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ثم انتقل إلي الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وأصبح اليوم مؤسسة راسخة يسعي الباحثون إلي إثبات ميلادهم في حقل الدراسات العثمانية من خلالها.

وما دام الحديث قد قادنا إلي الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فلاشك أن أي دارس لتاريخ المؤسسات العلمية والثقافية في مصر سوف يتوقف طويلا عند دور رءوف عباس في إحياء هذه المؤسسة والانطلاق بها إلي وضع جديد يليق بتاريخها الطويل منذ تولي رئاستها في عام 1999.

لقد كان رءوف عباس حامد الذي ولد في بورسعيد في 24 أغسطس سنة 1939 ورحل من القاهرة في 26 يونيو سنة 2008 رجلا حرقته البناء والتشييد، بناء البشر وتشبيد المؤسسات

emad.abughazi@gmail.com